الثقافة: مفهومها، مكوناتها، خصائصها ووظائفها في المجتمع.

خليفة عدالات، مدرس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس- تونس.

ملخص: حاولت من خلال هذا المقال أن أبين مفهوم "الثقافة" كمفهوم مركزي في الدراسات الانتروبولوجية عامة وفي حقل الأنتروبولوجيا الثقافية خاصة، كما حرصت عل إبراز نقاط الالتقاء والاختلاف بين مفهومي "الثقافة" و"الحضارة" من زاويتي نظر مختلفتين (الألمانية من جهة والانجلوسكسونية من جهة ثانية)، كما عملت أيضا على شرح العديد من المفاهيم ذات العلاقة الوثيقة بمفهوم الثقافة، كما بينت خصائص الثقافة ووظائفها في المجتمع. فهذه الدراسة تأسيسية تنظيرية وليست ميدانية، وأعتقد أن الإحاطة بجميع هذه المفاهيم والتفاصيل لازم وضروري لجميع الباحثين المشتغلين على قضايا الثقافة والمجتمع والشخصية.

الكلمات المفاتيح: الثقافة، الثقافات التحتية، الثقافة المضادة، التثقيف، التثاقف، التوجهات الثقافية، المساحة الثقافية.

Culture: its concept, components, characteristics and functions in society.

Khalifa Adalet, University of Sfax, Tunisia

ABSTRACT : In this article, I attempted to illustrate the concept of "culture" as a central concept in anthropological studies in general and in the field of cultural anthropology in particular. It also emphasized the points of convergence between the concepts of "culture" and "civilization" from two viewpoints (German on the one hand and Anglo-saxon in the Second), I also explained many concepts that are closely related to the concept of culture, as well as the characteristics and functions of culture in society. This study is theoretical rather than field-based, and I think that briefing all these concepts and details is necessary for all researchers working on issues of culture, society and personality.

KEYWORD : culture, subculture , counter-culture, acculturation, occulturation, culural alternatives, cultural space.

مقدمة:

يعرّف الإنسان أحيانا بأنه "حيوان مثقف" وهذا يعني أن الثقافة قد صاحبت الإنسان منذ بداية وجوده في هذا العالم، فكل ما يضيفه الإنسان لطبيعته وجميع ما يصنعه أو ينتجه لحفظ وجوده، أو لتحقيق تأقلمه مع البيئة التي يعيش فيها، أو ليحقق سعادته ورفاهته، يندرج ضمن مُسمّى الثقافة. والثقافة شيء متحرك، ومتغير باستمرار، لأن الذين ينتجونها ويتفاعلون من خلالها بشر أحياء، يتغيرون ويتحولون ويتطورون بدورهم، لذلك لا عجب أن تمر الثقافات والشعوب ببعض التحولات العميقة، أو تتعرض لبعض الاهتزازات وحتى لبعض "الحوادث الثقافية" بحسب تعبير بعض علماء الإناسة، لكن الثقافات تدافع عن نفسها وتملك أجهزتها المناعية التي تدافع عنها، وتجعلها ترفض وتدفع عنها جميع الأجسام الغريبة، التي قد تفتك بتناغمها الداخلي، أو تحول دون اشتغالها. وفي هذا العمل، سنشرح جملة من المفاهيم ذات العلاقة بالانتروبولوجيا الثقافية، كما سنعمل على إبراز مكونات الثقافة وخصائصها ودورها في حياة الفرد والمجتمع.

1: مفهوم الثقافة:

يعد التعريف الذي وضعه عالم الإناسة الانجليزي **ادوارد تيلور** للثقافة مرجعا أساسيا ولا غنى عنه بالنسبة للباحثين المنتمين لحقل البحوث الأنتروبولوجية. فقد عرف **"الثقافة"** في كتابه "الثقافة البدائية" بأنها " ذلك الكل المركب الذي يشمل المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات وجميع القدرات والعادات التي يكتسبها الفرد باعتباره عضوا في المجتمع. (ادوارد تايلر، 1920، المجلد1، ص1). أما فرانس بواز فقد عرفها بأنها "كل مظاهر العادات الاجتماعية في جماعة ما، وكل ردود أفعال الفرد المتأثرة بعادات المجموعة التي يعيش فيها وكل منتجات الأنشطة الإنسانية التي تتحدد بتلك العادات" . (سامية حسن الساعاتي، 1983، ص35). أما ميلفيل هيرسكوفيتش، فقد عرفها بأنها: "كل شيء يكون في المجال ويكون من صنع الإنسان"(ميلفيل هيرسكوفيتش،1950، ص52)

ما نستخلصه من هذه التعريفات الثلاثة هو أن مفهوم "الثقافة" يحيل على جملة المنتجات التي تكون من صنع الإنسان وقابلة للاكتساب والاشتراك والتبادل والتناقل من جيل لآخر، وهي تلعب دورا كبيرا في ضمان التوافق والانسجام بين أفراد المجتمع الواحد، ومن خلالها يتمكن الفرد من التأقلم مع محيطه البشري والطبيعي.

لكن يجب القول بأن هناك مفاهيم مجاورة لمفهوم "الثقافة" مثل مفهوم "الحضارة" la civilisation، ومفهوم "التقاليد" les coutumes، فهذه المفاهيم يستعملها بعض علماء الإناسة كمترادفات ويمايز بينها البعض الآخر. فالأنتروبولوجي الأنجليزي **ادوارد تايلور** يسوي لحد كبير بين مفهومي الثقافة والحضارة وهذا واضح من خلال التعريف الذي صاغه لمفهوم الثقافة والذي بدأه بالعبارة التالية " **الثقافة أو الحضارة** في مفهومها الاتنوجرافي الواسع هي ذلك الكل المركّب..." (إلى آخر التعريف) ...(Culture or civilization , taken in its wide ethnographic sense is that complex whole which includes knowledge, belief, art, morals, law, custom and any other capabilities and habits acquired by man as a member of society ».

كذلك فإن ترجمة كتاب أنماط الثقافة"patterns of culture" لروث بيندكت إلى الفرنسية تحت عنوان " "نماذج من الحضارات"échantillons de civilisations يدل على أن المفهومان يستعملان في المدرستين الانتروبولوجيتين الأمريكية والفرنسية بنفس الدلالة تقريبا.

أما المدرسة الألمانية فإنها تميز بين الثقافة والحضارة تمييزا واضحا، فهي تجعل الحضارة للمنتجات البشرية ذات الطابع المادي خاصة والتي يمكن أن تكون مشتركة بين شعوب مختلفة كبعض الأدوات والتقنيات وغيرها من المنجزات التي تعطي لمجتمع ما تموقعا ما في سلم الرقي المادي، بخلاف "الثقافة" فهي تحيل في الغالب على ما هو روحي ووجداني وفكري ويميز شعبا ما عن بقية الشعوب الأخرى. يقول **Thomas Mann**في إحدى مقالاته المنشورة في مجلة la *Neue Rundschau*:" لا أحد يعترض على أن المكسيك تمتلك ثقافة منذ لحظة اكتشافها، ولكن لا أحد يزعم أنها كانت متحضرة...ومن بين الشعوب القديمة فان الشعب الوحيد الذي يستحق ان يوصف ب"المتحضر" هو الشعب الصيني" (بيير كفمان، موسوعة اينيفرسليس لسنة 2002)

فالمدرسة الألمانية حريصة على التمييز بين "الحضارة" بما هي تقدم مادي و"الثقافة" بما هي تقدم روحي وعقلي وانساني. لذلك تطور عند الألمان مفهوم مجاور لمفهوم الثقافة هو مفهوم البناء والتكوين "la « bildung، باعتبار أن الأفراد المثقفين والمبنيين جيدا هم القادرين على صنع الحضارة الحقيقية التي يتكامل فيها البناء المادي مع البناء الروحي.

2- مفاهيم أساسية في الأنتروبولوجيا الثقافية:

2-1: الثقافة الفرعية أو التحتية:

إن تأكيد علماء الإناسة بأن الثقافة تحيل على ما هو عام ومشترك ومتقاسم بين أفراد الجماعة البشرية الواحدة، لم يمنعهم من الإقرار بإمكانية أن تتواجد داخل الثقافة الواحدة بعض الثقافات الفرعية أو التحتية Des sous cultures، يقل عددها أو يزداد حسب درجة بساطة أو تعقد المجتمع، فداخل بعض المجتمعات الغربية مثل الولايات المتحدة الأمريكية، تتعدد التشكّلات السوسيو- ثقافية، إلى الدرجة التي ابتدع فيها بعض علماء الإناسة مفهوم "الفيدرالية الثقافية" le fédéralisme culturel. .

تتعدد الثقافات التحتية في المجتمع بحسب ما يشتمل عليه من انقسامات وتفرعات اجتماعية طبقية مثلا أو عرقية أو دينية، كذلك فإن الاختلاف في المواقع الاجتماعية أو الفئات العمرية أو الجنسية (النوعية) يترتب عنه وفي حدود قد تختلف من مجتمع لآخر تمايزات ثقافية بين هذه الفئات، لذلك تحدث **كارل ماركس** عن "ثقافة الطبقة" culture de classe، وتحدث رالف لنتن عن النماذج الثقافية les modèles culturelles(رالف لنتن،1945، ص121-122).وكذلك عن ثقافات الموقعles Cultures du statut إن صح التعبير، وهي كلها تشكل "ثقافات فرعية"داخل الثقافة الأم. يقول رالف لنتن:"داخل الثقافات المركبة يكون المجتمع دائما مركبا من جماعات فرعية مما يؤدي بشكل مواز لوجود ثقافات فرعية داخل الثقافة الكلية.(رالف لنتن،1945.ص28).

2-2: التثاقف والتثقيف: acculturation et enculturation

"التثاقف" و"التثقيف" مفهومان متداولان لدى علماء الإناسة لكنهما يفيدان معنيين مختلفين، فالأول يستعمل للتعبير عن التفاعل الحاصل بين ثقافتين أو أكثر وما يمكن أن يصطحبه من تبادل أو تغير ثقافي، وهذا ما ذهب إليه كل **لنتن** في أحد أعمالهم المشتركة حيث عرفوا التثاقف بأنه: "جملة الظواهر التي تنتج عن التماسّ المباشر والمتواصل بين جماعات حاملة لثقافات مختلفة وتكون مصحوبة بشكل مواز بتغيرات في النمط الثقافي الأصلي لجماعة منها أو لجميعها(لنتن وآخرون، 1936، ص149).

وفي المقابل فإن مفهوم التثقيفl'enculturation، يفيد تقريبا نفس معنى التنشئة الاجتماعية، فهو يحيل على تلك العمليات المنظمة والمقصودة التي تحدث داخل المجتمع ويراد من خلالها تأسيس وتكريس ثقافة المجتمع لدى الناشئة.

3-2: مفهوم المساحة الثقافية:.l'aire culturelle

نشأ مفهوم "المساحة الثقافية" أو "المدى الثقافي" KulturKreis خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد الانتروبولوجي الألماني أدولف باستيان Adolf Bastian واشتهر تدريجيا مع انتروبولوجيين ألمان آخرين يعتبرون من الرواد الأوائل للانتروبولوجيا الجغرافية من أمثال فريدريك راتزل(1844-1904) وليو فروبينيوس Leo Frobinius (1873-1938) وفريتز قرايبنرFritz Graebner(1877-1934). ما يميّز هؤلاء هو قولهم بمبدأ "الانتشارية" وإقرارهم بأن العديد من الثقافات حتى وان بدت لنا اليوم مختلفة، فإنها تعود في أصولها الأولى إلى جذر ثقافي مشترك يطلقون عليه اسم"مركز الإشعاع الثقافي". وتقوم هذه الفكرة في نظر أصحابها على دعامتين أساسيتين أولاهما أن الشعوب المتشابهة في ثقافاتها قد نهلت جميعها من نفس المنابع الثقافية، لذلك فإنه من الطبيعيّ أن تشترك في بعض العناصر الثقافية مثل اللغة أو الدين أو العادات أو القيم، وهذا الاشتراك يكون واضحا كلما اقتربنا من المركز، ويضعف ويفتر كلما ابتعدنا عنه. أما **الدعامة الثانية** فهي الإقرار بأن الشعوب المتجاورة تتفاعل فيما بينها بأشكال مختلفة، فينتج عن ذلك التقاؤها واشتراكها في العديد من الجزئيات والتفاصيل الثقافية، مما يجعل من الممكن تجميع هذه الثقافات المتشابهة في إطار "مساحات" أو "أمداد" ثقافية جامعة.

انتقل هذا المفهوم إلى بعض علماء الإناسة الأوربيين والأمريكيين وأصبح من الأدوات التحليلية عندهم، وقد استعملوه لفهم مظاهر التشابه بين بعض الثقافات، لذلك نجدهم يقسمون العالم إلى مساحات ثقافية حدودها في الغالب دينية أو لغوية(voir par ex :Damien Erhard, et autres, Quelques réflexions sur les notions d'aires et d'espaces culturelles, dans les régions anglophone, francophone et germanophone. Journée d'étude organisée par l'institut des Amériques, université de Versailles, décembre 2013.)، وليست جغرافية، ويمكن ان تختلف معايير التقسيم من باحث لآخر فتختلف بموجب ذلك الحدود الخاصة بكل مدى ثقافي. وسنبين في الخريطة التالية المدى الثقافي الإسلامي والحدود الجغرافية التي يمتد إليها حسب ما وضعه الباحثان "شالياند" و"راغو".

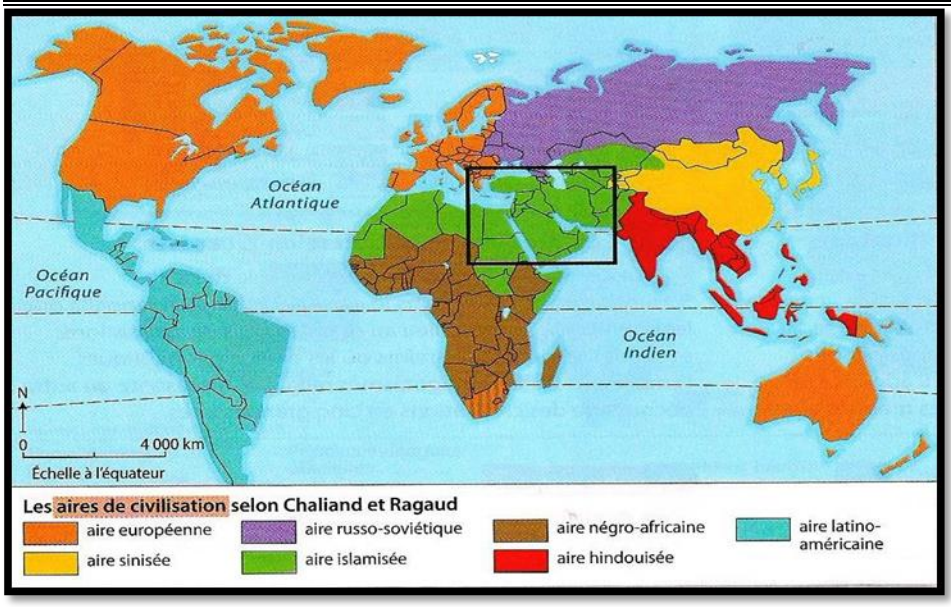

Ref :Google image, répartition des aires culturelles (retiré le 18-6-2016)

4-2: مفهوم الاتجاهات الثقافية:.les tendances culturelles

ينبع هذا المفهوم كما أشار إلى ذلك ميلفيل هيرسكوفيتش، (مصدر سابق، ص254)من الاقرار بأن الثقافة مجال لخلق التوافقات المختلفة في مجال العقائد وأنماط السلوك وبفعل التكرار والتراكم والتعميم التدريجي لبعض تلك التوافقات تنشأ اتجاهات جديدة أو توجهات ثقافية جديدة تتحول في بعض الحالات لثقافات فرعية أو تحتية. وسنعتمد هذا المفهوم لفهم كيف تكونت التوجهات الثقافية للجماعات السلفية وكيف صارت تمثل ثقافات فرعية داخل الثقافة التونسية.

3: مكونات الثقافة:

علاقة الإنسان ببيئته علاقة جدلية، فبقدر قدرته على التأثير في هذه البيئة بأشكال متعددة من التدخل والتحكم والاستغلال والتغيير والتوظيف والاستعمال، نجده مستعدا للتأثر بما تفرضه عليه هذه البيئة من ضرورات وتحديات وإكراهات، وإذا كان الإنسان يلتقي مع سائر الكائنات العضوية من جهة استعداده للتفاعل مع محيطه الطبيعي وايجاد السبل المناسبة للتأقلم معه، فإنه يتميز عنها جميعا، بما استطاع أن ينتجه ويراكمه ويستعمله ويورثه من قيم وقوانين وعادات وتقاليد ومعايير أخلاقية ومعتقدات ولغات ولهجات وخبرات عملية ومعارف وأدوات هي نتاج طبيعي لتفاعلاته اليومية والمتواصلة مع البيئة التي ينتمي إليها بمكوناتها المادية والبشرية والرمزية، وبغض النظر عن مدى تطور أو تخلف هذه المنتجات فقد اتفق علماء الأنتروبولوجيا على أن يطلقوا عليها مصطلح "الثقافة".

حين نعود إلى أصل كلمة ثقافة culture في اللغتين الفرنسية والانجليزية نجدها مشتقة من لفظ cultura التي تدور في أصولها اللاتينية حول معاني الفلاحة والعمل الفلاحي والعمل المنتج

عموما، فهي تعبّر عن للمنتجات البشرية ذات الطابع المادي بالأساس، ثم وقع التوسع في دلالات هذه الكلمة لتشمل المنتجات الرمزية أيضا، لذلك يحيل هذا المفهوم في دلالاته اللغوية الفرنسية والانجلوسكسونية على كل ما ينتجه الإنسان من منتجات مادية ورمزية على حد السواء، وبالتالي فلا عجب أن يستعمل هذان المفهوم في إطار هذه المدرسة بنفس المعنى ونفس الدلالة تقريبا التي يعبر عنها مفهوم "الحضارة" civilisation المشتق من اللفظة اللاتينية civisالتي تحيل علىمعنى المدينة وكل ما ينتجه ساكنو المدينة من منتجات مادية ومؤسساتية وتقنية وقانونية وفنية وغيرها، تجعلهم يعيشون حالة من المدنية civilité والحضارة civilisation لا تتوفر لدى سكان الأرياف والمجتمعات المترحّلة.

إن العودة إلى مختلف التعريفات الخاصة بمفهوم "الثقافة" تجعلنا أقرب للإقرار بأن الثقافة تتكون من مكونين أساسيين ومتمايزين وهما:

3-1: المكون المادي أو الثقافة المادية. culture matérielle : ويشمل كل الأشياء والعناصر المادية التي تحتوي عليها ثقافة شعب ما بغض النظر عن مستوى تقدمه وتحضره، وتندرج في هذا السياق تلك الأدوات التي يستعملها الأفراد في الصيد أو الحرب مثل السهام والرماح والبنادق أو يستعملونها في الطبخ مثل الأواني أو تستعمل في التأثيث المنزلي، مثل الأسرّة والأفرشة، أو في اللباس، أو النقل، كما تدخل في هذا القسم من الثقافة المادية المنازل والطرقات والمواد الغذائية والمنتجات الفلاحية والحرفية والصناعية عموما، وكل ما له حضور فيزيائي أي مادي ملموس بغض النظر عن شكله ووظيفته والمادة التي صنع منها، شريطة أن يكون من صنع الإنسان.

إن ما يميز العناصر الثقافية ذات الطابع المادي هو سهولة تحديدها والكشف عنها وخاصة فيما يتعلق بالثقافات الحديثة المعاصرة، وهذا لا ينفي أن الاطلاع على بعض العناصر الدقيقة يتطلب أحيانا التواجد لمدة طويلة داخل الشعوب التي نقوم بدراسة ثقافاتها والانخراط في أنشطتها اليومية المختلفة، وهذا يتطلب بعض الجهد من الباحثين، إلا أن الأمر يكون أكثر صعوبة عندما نبحث في ثقافات الشعوب البدائية، أو ثقافات الشعوب المنقرضة، فهذا يتطلب القيام بالعديد من الحفريات للكشف عن مخلفاتها الثقافية والحضارية، ونشير في هذا السياق أن الأصعب في العملية كلها هو تحديد الوظائف التي تستخدم فيها تلك العناصر الثقافية المادية، فالعنصر الواحد مثل الرمح أو الخنجر أو الآنية أو قطعة الحلي، قد توظّف في مجتمع ما لأجل القتل، وفي مجتمع آخر لأجل الزينة أو دفع الأرواح الشريرة أو لجلب الحظ، لذلك فإن الباحثين المتخصصين في مجال البحوث الإتنولوجية والأنتروبولوجية مدعوون للتعمق في دراسة الثقافات التي يدرسونها ليكون وصفهم لها دقيقا ولتكون الاستنتاجات التي ينتهون إليها واقعية وعلمية لحد كبير.

3-2: المكون اللامادي للثقافة أو الثقافة اللامادية.culture non matérielle : يشمل هذا الجانب كل ما تبتكره الشعوب والمجتمعات والجماعات البشرية من لغات ولهجات ورموز تعتمد في التواصل، كما تشمل مخزونها من القيم والمعايير والقوانين والعادات والتقاليد والنظم وكل ما تضعه هذه المجتمعات لضبط سلوك الأفراد وتنظيم مختلف المعاملات والتفاعلات التي تقع بينهم، كذلك تشمل الثقافة اللامادية ما يتجمع لدى هذه الشعوب من خبرات عملية وفنية وأفكار

وتصورات ومعتقدات، وما شابه ذلك من عناصر غير مادية تعتمد في تنظيم علاقة الإنسان مع الطبيعة وتحديد موقعه فيها وتقديم تصور شامل للوجود الإنساني وللعالم بأكمله.

ليست الثقافة مجرد تجميع عشوائي لجملة من العناصر المادية والرمزية، ولا هي تركيم اعتباطي لكمّ كبير أو صغير من العادات والتقاليد والنظم والمعايير والقيم والقوانين والخبرات...الخ، وإنما هي بناء أو نسق مكون من عدة عناصر مترابطة متكاملة ومتناغمة فيما بينها، لذلك تحتّم الدراسة العلمية للثقافة تحليل مكوناتها البنائية من ناحية والطريقة التي تنتظم بها تلك المكونات في نسق متكامل. ويجدر بنا في هذا السياق أن نميز بين أمور ثلاثة وهي: السمة الثقافية، المركب الثقافي، والنمط الثقافي.

أولا: السمة الثقافية: الثقافة كما اشرنا إلى ذلك سابقا هي نسق مركب من عناصر متعددة ومختلفة ولكنها متناسقة فيما بينها، وتعتبر السمة الثقافية في نظر علماء الأنتروبولوجيا اصغر وحدة ثقافية يمكن أن يحلل لها النسق الثقافي، ويجب أن نوضح في هذا السياق الفرق بين الشيء بما هو مادة طبيعية خام والشيء بما هو "سمة ثقافية" فحجر الصوان هو في الأصل مادة من مواد الطبيعة لا علاقة له بثقافات الشعوب، ولكنه حين يستعمل لإشعال النار فإنه يتحول لسمة ثقافية تعبر عن مرحلة حضارية معينة وحاجة بشرية محددة، وطريقة بعينها في تلبية تلك الحاجة،وكذلك الأمر بالنسبة للفحم الحجري والحديد أو الصلب، فإن هذه المواد ليست في الأصل سوى مواد طبيعية لا تحمل أي دلالة ثقافية أو حضارية، ولكنها حين أدمجت في مجال تصنيع وتشغيل المحركات البخارية أو الكهربائية، أخذت صفة "السمة الثقافية"، فالمحرك البخاري أو الكهربائي أو النفاث، كل منها يعبر عن مرحلة معينة من تطور العبقرية البشرية ويحيل على نمط خاص من المجتمعات يطلق عليها اليوم اسم "المجتمعات الصناعية"،أو "ما بعد الصناعية" فيجوز بسبب ذلك أن نطلق عليها اسم "السمات الثقافية" وهي توفر لعالم الأنتروبولوجيا مداخل مهمة لدراسة المجتمعات سواء كانت بدائية أو حديثة. وتجدر الملاحظة بأن السمة الثقافية يمكن أن تكون بدورها مادية على نحو ما أشرنا له في الأمثلة السابقة، ويمكن أن تكون غير مادية مثل العادات السلوكية والمعتقدات والطقوس الدينية وطريقة التسليم أو التقبيل وكذلك ما تفيده بعض إشارات اليد من دلالات، فهذه السمات الثقافية تختلف دلالاتها أحيانا من مجتمع لآخر ولا تفهم دلالاتها إلا بإرجاعها للنسق الثقافي الذي تنتمي له.

ثانيا: المركب الثقافي: من أبرز خصائص السمة الثقافية أنها لا توجد معزولة أبدا، فهي ترتبط دائما بجملة من السمات الأخرى، وجملة السمات المترابطة المتناسقة تكوّن في مجموعها شيئا آخر يسمى "المركب الثقافي"، فالمركب الثقافي هو "مجموعة من السمات الثقافية التي ترتبط فيما بينها ارتباطا عضويا ووظيفيا وذلك بالنسبة لموقف من المواقف أو نشاط من الأنشطة"(السيد، عبد العاطي السيد، 1977، ص 38). فالطريقة التي يتم بها الزواج يمكن اعتبارها "مركبا ثقافيا" والمراحل التي تسبق الزواج مثل الخطوبة أو "المواسم" أو عقد القران وكذلك الأشكال الاحتفالية التي تصاحب هذا الزواج، تعد من "السمات الثقافية" التي يتشكل منها هذا المركّب.

ثالثا: النمط الثقافي: cultural pattern: يتكون النمط الثقافي من عدة مركّبات ثقافية مترابطة ومتناسقة فيما بينها، وتعد رائدة الأنتروبولوجيا الأمريكية **روثبيندكت** أبرز من استعمل هذا

المفهوم وذلك في كتابها " أنماط الثقافة"*Patterns of culture,* (1934)، فالنمط الثقافي في نظر هذه الباحثة هو الطابع العام أو السمة العامة التي تميز جماعة بشرية عن غيرها من الجماعات، لذلك تحدثت هذه الباحثة انطلاقا من المجتمعات التي درستها(الزوني والبابلو والدوبي الموجودة بالجنوب الغربي من القارة الأمريكية). عن نمطين ثقافيين رئيسيين وهما: "النمط الأبولوني" حيث تتميز الجماعتان الأولى والثانية بالمسالمة والوداعة والتعقل واحترام القيم المنظمة للسلوكيات الفردية والعلاقات الاجتماعية، و"النمط الديونسيوسي" المميز لجماعة "الدوبي" حيث يتميز أفراد هذه الجماعة بحبهم المفرط للمتعة والإقبال على الحياة واستهلاك المخدرات والخمور والميل إلى العنف والتخمر. والنمط الثقافي كما يعرفه عالم الأنتروبولوجيا **"ادوارد سابير"**. (1884-1939) هو "أسلوب تعميمي للسلوك ينسب إلى المجتمع أكثر مما ينسب للفرد (نقلا عن السيد عبد العاطي،1977، ص 39)، وتوجد مفاهيم أخرى تؤدي نفس المعنى المضمّن في مفهوم " النمط الثقافي" مثل " السّمة الوطنية " le caractère national، أو "روح الأمة" .esprit de la nation وهذا المفهوم الأخير مستعمل لدى الألمان خاصة. وتجب الإشارة إلى أنه لا يصح تصنيف مجتمع ما، ضمن نمط ثقافي محدد، إلا إذا استمر على ذلك النمط لمدة زمنية معتبرة، أما الحالات العابرة أو المتقاسمة بين عدد قليل من الأفراد فإنها لا تعد أنماطا ثقافية بالمعنى العلمي الذي يعنيه علماء الإناسة.

4: الثقافة وسؤال التنوع داخل الثقافة الواحدة:

تكشف الدراسات الأنتروبولوجية على أن الثقافة – في أي مجتمع من المجتمعات- ليست كتلة واحدة غير قابلة للتجزّؤ، فهي كما اشرنا لذلك سابقا تتكون من سمات ومركبات وأنماط ثقافية، كذلك فإن الأفراد لا يتفاعلون بنفس الحجم والعمق مع مكونات الثقافة التي تحتضنهم، فالأفراد يتفاوتون في هذا التفاعل بسبب ما هو قائم بينهم من تمايز واختلاف في الجنس أو في السن أو في المهنة أو المكانة الاجتماعية، وهذه الحقيقة ثابتة سواء في المجتمعات الأكثر تطورا ورقيا أو تلك الأكثر بدائية، فالبنت تأخذ من ثقافة مجتمعها كل الأدبيات والتطبّعات والخبرات التي تساعدها على أداء دورها المستقبلي كزوجة أو كأمّ، والولد يُنشّأُ ويُدرّبُ وفقا للدور الذي ينتظر منه أن يلعبه عندما يكون زوجا أو أبا، كذلك يتعلم الأفراد بأن السلوكيات المسموح بها في سن الطفولة أو الشباب، لا تكون كذلك بالضرورة عندما يلتحق هؤلاء بمجتمع الكهول، كذلك فإن من يمتهن مهنة ما أو حرفة ما، يتعلم من ثقافة المجتمع ما يساعده على أداء تلك المهنة أو الحرفة لا غير، وترشدنا الوقائع وتدلنا على أن ما يتعلمه الفلاح ليمارس مهنة الفلاحة، ليس هو ذاته ما يتعلمه الحداد أو النجار أو المعلم أو الطبيب أو القاضي أو رجل الدين، لكن قولنا هذا لا ينفي وجود عناصر ثقافية عامة ومشتركة بين جميع الأفراد المكونين لذلك المجتمع. وقد قدّم عالم الأنتروبولوجيا **رالف لنتن** تفصيلا مهما في هذا الباب عندما تحدث عن أربع مستويات من المشاركة الثقافية وهي التالية:

المستوى الأول: المشاركة العامة فيما سماه "لنتن" العموميات الثقافية: العموميات الثقافية هي جملة العناصر والملامح والخصائص الأساسية المميزة لثقافة ما والتي يتعين على كافة أفراد الجماعة أو المجتمع التوافق حولها والامتثال لها، فهذه العموميات تعد من العناصر الثقافية

الضرورية والرئيسية لحفظ وجود الأفراد، وضمان عيشهم المنظم والمستقر داخل الجماعة التي ينتمون إليها، فاللغة المعتمدة في التخاطب والتواصل مثلا، والعادات المعتمدة في تناول الطعام أو في الزواج أو في معاقبة الخارجين عن القانون...الخ، هي في الغالب من العموميات الثقافية المتفق حولها بين أفراد المجتمع الواحد، فاليابانيون متفقون تقريبا على اعتماد تلك "العصيّات" في تناول الأطعمة المختلفة، وفي مقابل ذلك نجد الايطاليين والأوربيين وغيرهم من المتأثرين بالثقافة الغربية، يستعملون "الملعقة" أو "الفرشاة" في تناول الطعام. فالعموميات الثقافية وإن كان من خصائصها أنها مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد، فإنها ليست بالضرورة واحدة لدى كل المجتمعات، وهو ما يجعل لكل مجتمع طابعه الخاص. من جهة أخرى فإن عنصرا ثقافيا ما يمكن أن يكون من العموميات الثقافية في مجتمع ما دون أن يكون كذلك في مجتمع آخر، ومثال ذلك أن استعمال الملعقة في تناول الطعام هو من العموميات الثقافية في المجتمعات الغربية، بينما يعد من خصوصيات الطبقة المترفّهة فقط في المجتمعات الخليجية، فأغلب الأفراد في منطقة الخليج يفضلون تناول الطعام ب " اليد " مباشرة، معتبرين ذلك من السنن الحميدة. وتجدر الملاحظة في هذا السياق إلى أن بعض العناصر الثقافية تميل لأن تكون عالمية أي حاضرة لدى كل الشعوب، وتندرج في هذا الباب تلك العناصر الثقافية المرتبطة بإشباع الاحتياجات البيولوجية والعضوية للفرد، كتلك المعارف والخبرات المتعلقة برعاية الطفل الصغير، أو بتنظيف الجسم أو بدفن الميت...

المستوى الثاني: المراوحة بين البدائل الثقافية: يتاح للأفراد داخل كل مجتمع وداخل كل ثقافة هامشا ما من حرية الاختيار بين بدائل ثقافية متعددة تتساوى فيما بينها من حيث درجة تقبل المجتمع لها، وهذه البدائل تتيح للفرد بأن يتصرف في الوضعية الواحدة بأكثر من طريقة، وتتوفر هذه البدائل داخل ثقافة ما بقدر ثراء تلك الثقافة وما تراكم لأفرادها من خبرات ومعارف تتعلق بكيفية الاستجابة للتحديات والمثيرات الخارجية المختلفة، فداخل بعض المجتمعات العربية يتاح للفرد أن يتزوج بأكثر من طريقة، فهناك الزواج العصري الذي يشترط فيه عقد القران، وتوجد في مقابله صيغة أخرى للزواج لا يشترط فيها هذا العقد وتسمى "زواج عرفي". كذلك فانه بإمكان الإنسان إذا أراد التنقل أن يركب الحافلة أو القطار أو الطائرة، دون أن يلقى في مقابل ذلك ذما أو لوما أو عقوبة. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن ما يعتبر في ثقافة ما من البدائل الثقافية يمكن أن يكون في مجتمعات أخرى من العموميات الثقافية، ففيما يتعلق بطرق التنقل مثلا يرفض مجتمع "الأميش" في الولايات المتحدة الأمريكية كل وسائل النقل الحديثة وشتى مظاهر التحضر، ويتمسك لحد اليوم باعتماد العربات المجرورة بالخيول.

هل يمكن الحديث عن البدائل الثقافية بالمعنى الراديكالي للكلمة؟

إن مفهوم البديل الثقافي بالمعنى الراديكالي للكلمة لا يصح من وجهة نظر علمية، وذلك لأن الثقافة ليست شيئا خارجيا أو سطحيا ولا هي شيء عابر بإمكاننا الاستغناء عنه في أي لحظة نريد، بل هي شيء مدمج في نفوسنا وعقولنا وطريقة تفكيرنا وفي تصوراتنا وطريقة تصرفنا والثقافة هي عاداتنا وتقاليدنا وهي أعيادنا الدينية والدنيوية وهي اللغة التي نتكلم بها وهي كذلك لهجاتنا المحلية وهي أيضا طرائقنا في اللباس وفي تناول الطعام وفي الجلوس وفي النوم وفي

تربية الابناء، فهي إذن معيشنا اليومي الذي ليس بإمكاننا الاستغناء عنه، بل ان الشعوب تعتز غالبا بثقافاتها وتقر بأهميتها في ضمان وحدتها وتيسير سبل التواصل والتفاعل بين أفرادها واندماجهم في مجتمعاتهم الى غير ذلك من الأدوار والوظائف التي تضطلع بها الثقافات عموما والتي سنشرحها لاحقا بأكثر تفصيل في العنصر الخاص بوظائف الثقافة، وحتى حين نعود الى المقاربات السوسيولوجية والأنتروبولوجية المختلفة فإننا نجدها تتحدث عن الثقافات الفرعية، أو الثقافات المضادة، وكذلك نجدها تتحدث عن الصراع الثقافي والتطور الثقافي والانتشار الثقافي، ولكن لا نجدها تتحدث عن البديل الثقافي بالمعنى الراديكالي والاستئصالي للكلمة، فماركس مثلا وبالرغم مما تتسم به سوسيولوجية من راديكالية وثورية يقر بأن كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع تحمل بالضرورة بعض ترسبات المرحلة السابقة، فالطبقات المهيمنة نجدها مسكونة دائما وأبدا وسواء في المرحلة الإقطاعية او المرحلة البرجوازية بهاجس الاستغلال، أما الطبقات المستغلة فإنها مسكونة بهاجس الثورة والانعتاق. وحين ننظر الى الواقع فإننا نجد هذه النظريات الثورية تضطر أحيانا للاستنجاد ببعض مكونات الثقافة القديمة ليكون بإمكانها تنزيل مشروعها الثقافي والحضاري البديل حيز الواقع، وهنا نستحضر سياسة "الخطوة الى الوراء من أجل الخطوتين إلى الأمام" التي اعتمدها لينين لإنعاش الاقتصاد الروسي عقب ثورة 1917. اما فيما يتصل بنظرية كوب الماء الجنسية فقد أكد رموز الماركسية بأنهم لم يبتدعوا شيئا جديدا لان الإباحية الجنسية حاضرة بطبعها في المجتمع البرجوازي الا انها تمارس بطريقة خفية، وأن ما سيفعله الماركسيون هو تمكين الناس من ان يعيشوا حياتهم الجنسية بحرية كاملة ودون أن يضطروا لإخفائها، فإذا تناولنا الموقف الماركسي الرافض للدين باعتباره "أفيون الشعوب" حسب تعبير ماركس نفسه، واستعرضنا كل الجهود التي بذلت عقب الثورة البلشفية لإخفات أصوات المؤسسات الدينية، فإننا نتوقع حسب مفهوم البدائل الثقافية، بأن الثقافة المادية الجديدة ستقضي تماما على كل نفس دبني مسيحي أو إسلامي في مختلف جمهوريات الاتحاد السوفياتي، لكن تلك الشعوب أخفت معتقداتها ومارست عباداتها في أقبية المنازل، حتى جاءت مرحلة البريسترويكا التي فتحت على مرحلة جديدة تميزت بإعطاء الحرية الدينية، فإذا بالمساجد والكنائس تفتح من جديد، وإذا برؤساء الدولة الروسية يشاركون المسلمين والمسيحيين احتفالاتهم الدينية.

فإذا نظرنا في بعض الديانات مثل الإسلام وجدناه يميز بين مرحلة سابقة يصفها بمرحلة الجاهلية ومرحلة لاحقة تسمى مرحلة الإسلام، وقد أعلن في العديد من الآيات القرآنية أنه جاء لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ولكنه من ناحية عملية لم يقطع تماما مع المرحلة السابقة لان العرب الذين اعتنقوا الإسلام حافظوا على طريقة لباسهم ولغتهم العربية ولهجاتهم بل إن القرآن نزل على سبعة أحرف مراعيا اللهجات العربية الموجودة زمن التنزيل، كذلك حافظوا على العديد من قيمهم القديمة مثل الكرم والإجارة وغيرهما، ونفس الأمر بالنسبة للشعوب والعرقيات الأخرى التي اعتنقت هذا الدين الجديد فقد حافظ كل شعب على قسم كبير من عاداته وتقاليده وقيمه القديمة لذلك فنحن لا نتحدث اليوم عن إسلام واحد بل عن إسلام متعدد: إسلام تونسي، وإسلام سعودي وإسلام فارسي وإسلام سني وأخر شيعي الخ...وهذا يعني ان الثقافات لا تمحى ولا تستبدل ولا تتغير بمجرد ثورة مهما كانت هذه الثورة راديكالية، ولا بمجرد قرار برلماني حتى وإن حاز على

إجماع أعضاء البرلمان، وحتى الوحي المنزل من السماء فإنه يراعي المعطيات الثقافية والحضارية القائمة لحظة التنزيل. وبالتالي يمكننا القول بأن لكل ثقافة مناعتها ودفاعاتها الحيوية الذاتية التي تتصدى بها لكل أشكال التعسف والتلفيق والتهجين القهري.

إن أشكال الصدّ التي واجهت بها مجتمعاتنا العربية محاولات "الأدلجة" التي قامت بها بعض النخب الفكرية وكذلك محاولات التغريب التي بذلها الاستعمار الفرنسي أو الانجليزي في تونس أو في الجزائر أو في مصر مثلا، دليل على أن مفهوم "البديل الثقافي" بالمعنى الراديكالي والأصولي لهذا المفهوم لا يملك أي سند علمي أو واقعي، إلا أن يقوم على عملية تصفية عرقية لشعب من الشعوب، فيزول هذا الشعب وتزول ثقافته معه ليحل مكانه شعب آخر يحمل ثقافة أخرى، عندها يصح حديثنا عن البديل الثقافي لرقعة جغرافية معينة ولكن ليس لشعب معين.

المستوى الثالث: الخصوصيات الثقافية: إن الإقرار بوجود عناصر ثقافية مشتركة بين جميع أفراد المجتمع، لا ينفي وجود عناصر ثقافية أخرى تخص فئات اجتماعية بعينها، فداخل المجتمع الواحد يمكن أن تتواجد المجموعات العرقية والدينية المتعددة والطبقات المتناقضة في مصالحها وأشكال أخرى متعددة من التقسيم الاجتماعي المبني على أساس توزيع الأدوار وتقسيم العمل، لأجل هذا تحدث رالف لنتون عن الشخصيات الموقعيةles personnalités statutaires، هي شخصيات متباينة فيما تظهره من تمظهرات سلوكية إلى درجة تسمح لنا "بالتساؤل عما إذا كانت هذه الشخصيات تحمل نفس الأنسقة القيمية التي تحملها الشخصية القاعدية أم لا"(لنتن، 1936، ص126)

إن الاختلاف بين الشخصيات حسب "النوع" أو"الموقع" أو "الوظيفة" يترجم لنا نوعا آخر من الاختلاف يتصل بالقيم والمعايير وأنماط السلوك الخاصة بكل موقع، فالقيم التي تُربّى عليها البنت ليست هي ذات القيم التي يربى عليها الشاب وذلك لخصوصية الدور الذي ينتظر كل منهما، كذلك فإن التدريب الذي يتلقاه شخص ما ليكون إماما في مسجد، ليس هو ذات التدريب الذي يتلقاه القائد العسكري أو المسؤول السياسي، وهذا لا ينفي طبعا إمكانية أن يكون الفرد في موقع ما عارفا بما يتدرب عليه الآخرون ويتطبعون عليه بحكم انتمائهم لمواقعهم الخاصة بهم. إن الاختلاف بين الأفراد فيما سماه **لنتن** بـ "الاستجابات الخاصة أو المميزة" les réponses spécifiques لمقتضيات الحياة الاجتماعية، لا يكون في مستوى المعارف بقدر ما يكون في ردود الفعل التي يفرضها الموقع تجاه مقتضيات الحياة اليومية، فرجال الأمن مثلا واللصوص يعرفون جميعا أن السرقة تعد من الأفعال المذمومة والمجرمة، لكن اللصوص لا يتوقفون عن السرقة، وفي المقابل لا يتوقف رجال الأمن عن مطاردتهم.

المستوى الرابع: الثقافات الفرعية : les sous cultures: الثقافات الفرعية هي مثل الخصوصيات الثقافية من الوحدات التي يمكن أن تدخل في تركيبة ثقافة ما، إلا أن الثقافات الفرعية لها من مظاهر التمايز والخصوصية والاستقلالية ما يجعل كل واحدة منها تظهر وكأنها مستقلة بذاتها وفريدة من نوعها، ويحضر هذا النوع من الثقافات الفرعية في المجتمعات الكبيرة والمعقدة والمتضمنة لإثنيّات وعرقيات مختلفة، فقد أشرنا سابقا لمجتمع "الأميش" les Amish الذي يعُدّ حوالي 250 ألف نسمة موزعة في ثمان وعشرين ولاية أمريكية من أبرزها بنسلفانيا،

ويعيش هؤلاء حياة خاصة بهم بالاستناد لقانون خاص بهم يسمى "الأوردنانغ" Ordnung، مستمد من فهمهم الخاص لتعاليم الإنجيل، وهم يختلفون في نمط العيش الذي اختاروه والقائم على التقليد والمحافظة والزهد ورفض كل أشكال التحضر وكل ما هو مشترك ومتعارف عليه بين الأمريكيين، لذلك يمكن اعتبار ثقافة شعب "الأميش" من الثقافات الفرعية داخل الثقافة الأمريكية الأم.

إذا عدنا إلى المثال التونسي، يمكننا اعتبار الثقافة الخاصة باليهود القاطنين بمدينة جربة مثلا من الثقافات الفرعية ولكن في حدود معينة، فهؤلاء لهم عقيدتهم الدينية وشعائرهم التعبدية ومناسباتهم الاحتفالية الخاصة بهم، وكذلك عادات وتقاليد يتفردون بها عن سائر التونسيين، و لكن لم يمنعهم ذلك من أن ينخرطوا في جوانب أخرى من الثقافة التونسية بحكم انتسابهم لهذه الثقافة الأم.

يجب القول بأن الثقافة الخاصة بأقلية معينة لا تعد ثقافة فرعية داخل الثقافة الأم إلا إذا حظيت بقدر مهم من التميز والانتشار والاعتراف بها في آن واحد على نحو ما أشرنا له في المثالين السابقين، فالثقافة الخاصة بالعصابات لا يمكن اعتبارها من الثقافات الفرعية لأنها تفتقر لشرط الاعتراف المجتمعي بها، ولأنها تمثل خطرا على حياة الأفراد وتهديدا لاستقرار المجتمع واشتغاله، وبالتالي فهي أقرب للظواهر الاجتماعية المرضية (Paul Gaultier,*les maladies sociales*, 1913)، من جهة ثانية فإن انفراد عدد قليل من الأفراد ببعض الممارسات الثقافية لا يجعل منها ثقافة فرعية، فإذا كانت هذه الممارسات متناقضة مع ما هو سائد ورافضة له وتعمل على تغييره، جاز إدخالها ضمن ما يسمى بـ "الثقافات المضادة"les contres cultures.

5: خصائص الثقافة:

حرص رالف **لنتن** في مختلف بحوثه على أن يميز تمييزا واضحا بين الفرد والمجتمع والثقافة. "فالمجتمع – في نظره- هو جماعة منتظمة من الأفراد، بينما الثقافة طائفة منتظمة من استجابات مكتسبة يتميز بها مجتمع معين، أما الفرد فهو كائن حي قادر على التفكير والفعل والشعور بذاته ولكن استجاباته هذه تتشكل إلى حد كبير في ضوء احتكاكه بالمجتمع والثقافة".(السيد،عبد العاطي،1977، ص7.) وعلى الرغم من تأكيد الدراسات الانتروبولوجية على مدى ارتباط الثقافة البشرية بوجود البشر ومدى اندماجها وانصهارها في تصوراتهم وعواطفهم وتطبعاتهم وسلوكياتهم، فإن ذلك لا يمنع في نظرهم الإقرار بأن للثقافة وجودها الخارجي المستقل بذاته، مما يسمح بأن تكون "الثقافة" موضوعا للدراسات السوسيولوجية والأنتروبولوجية، لذلك سنعمل في هذا الباب على ابراز اهم الخصائص والسمات التي تتسم بها الثقافات عموما.

5-1: قابلية الثقافة للتعلم والاكتساب: الثقافة هي جملة من المكتسبات "الفوق عضوية" يكتسبها الفرد من خلال تفاعلاته اليومية مع محيطيه الاجتماعي والطبيعي، فهي إذن ليست معطى طبيعيا يولد مع الإنسان، ولا هي شيئا غريزيا أو فطريا يمرره الآباء لأبنائهم من خلال جيناتهم الوراثية. فاللغة واللهجة والعادات والتقاليد والمعتقدات والتصورات وأنماط السلوك وغيرها من العناصر المكونة لثقافة مجتمع ما، يكتسبها الأفراد اكتسابا من خلال عمليات مكثفة ومتواصلة من التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية ينجزها المجتمع من خلال مؤسساته التربوية والتعليمية القائمة أصلا لهذا الغرض. ولن نكون مبالغين إذا قلنا بأن كل التعريفات التي وضعها علماء الأنتروبولوجيا

الثقافية لمفهوم الثقافة قد اتفقت على الإشارة إلى هذه الخاصية ولو بصيغ مختلفة. (انظر المفهوم الذي صاغه تايلور للثقافة مثلا) كما نجدهم يؤكدون في دراساتهم على أن خاصية "الاكتساب" هي المعيار الأساسي الذي بمقتضاه يقع التمييز بين ما هو ثقافي ويتصل بالتالي بمجال بحثهم، وما هو طبيعي أو غريزي وينتمي لحقول بحثية أخرى. وقد أوردت **روث بيندكت** في مؤلفها الموسوم "أنماط الثقافة" échantillons de civilisation عدة أمثلة لتشرح كيف تخلى الأمريكان السود من ذوي الأصول الإفريقية عن ثقافاتهم الأصلية "ليقتربوا تدريجيا وحتى في أدق الجزئيات من ثقافة البيض" (روث بيندكت، 1934، ص10) وهذا لا يعني أن الأفراد مجرد متلقين أو مستهلكين لما tيقدم إليهم بل هم شركاء فاعلين في هذه العملية من جهة كونهم يفاوضون في عديد الأشياء التي يقدمها لهم المجتمع فيقبلون بعضها ويردون بعضها الآخر ويضيفون لثقافة مجتمعهم أفكارا وخبرات وتوجهات جديدة، بل إن أصحاب بعض الإيديولوجيات استطاعوا أن يحدثوا تغيرات كبرى في ثقافة مجتمعاتهم مثل ما هو الشأن بالنسبة للإيديولوجيا الماركسية وما أحدثته من تحولات في المجتمعات التي اعتنقت هذه الايديولوجيا، أو ما أحدثه رجال الإصلاح الديني في أوربا بإحداثهم لرؤية دينية مسيحية جديدة تمثلت في المذهب البروتستانتي.

يولد المولود إذن صفحة بيضاء، فيتعلم بالتدريج وبصورة مقصودة أحيانا وغير مقصودة أحيانا أخرى ثقافة المجتمع الذي ينشأ فيه، فلو أخذنا ثلاثة مواليد جدد ووزعناهم على ثلاث عائلات مختلفة من مجتمعات مختلفة فرنسية مثلا وألمانية وأمريكية وعدنا لهم بعد عشرين سنة، لوجدنا كل واحد منهم يتكلم بلغة مجتمعه الذي نشأ فيه، ولوجدناه يتصرف وفقا للعادات والتقاليد والقوانين والقيم السائدة التي تعلمها سواء من محيطه الضيق المتمثل في الأسرة أو من محيطه الأوسع المتمثل في المجتمع.

2-5: قابلية الثقافة للانتشار: بالرغم من أن الحيوانات جميعا مؤهلة وقادرة على التعلم حسب ما أثبتته الدراسات والتجارب والوقائع، إلا أن ما يميز الكائن البشري هو قدرته على نقل ونشر ما اكتسبه وتعلمه من خبرات ومعارف وطرق عيش وأفكار ومعارف وأنماط سلوك للآخرين من بني نوعه من البشر، وهذا النقل أو النشر يتم في إتجاهين إثنين:

الاتجاه الأول: اتجاه أفقي تزامني: ونعني بذلك انتشار العناصر الثقافية بين أفراد الجيل الواحد مثلما يحدث عند بروز دين جديد أو نظرية أو فلسفة أو موضة جديدة، فأصحاب هذه الديانات والفلسفات يبدؤون في البداية فرادى، ولكنهم ينشرون ما جاؤوا به من أفكار ومبادئ ومعتقدات في المحيطين بهم ممن عاصروهم وعايشوهم، فتنتشر ويصبح لها أتباع وأنصار ومريدون كثيرون، كذلك فإن ما تقوم به المدارس في مجتمع ما وفي مرحلة تاريخية محددة هو نشر الثقافة الرسمية لذلك المجتمع بين الناشئة مما يمكنهم من الاندماج في بيئتهم الاجتماعية والاضطلاع بالأدوار التي يقع إعدادهم للنهوض بها سواء داخل العائلة أو في المجتمع بصورة عامة.

الاتجاه الثاني: اتجاه خطي تعاقبي: ونقصد بذلك ما تقوم به المؤسسات المختلفة المنخرطة في عملية التنشئة الاجتماعية من دور في حفظ ونقل ثقافة المجتمع من جيل لجيل، فالآباء مثلا ينقلون ما توارثوه عن آبائهم إلى أبنائهم، والمجتمع يوجد المؤسسات التعليمية اللازمة لنقل ونشر المعارف الموروثة عن القدماء إلى الأجيال الراهنة، وتتواصل عملية النقل والتناقل هذه دون

توقف عبر الأجيال المتعاقبة، بل إن الشعوب تتعاون وتتكامل في حفظ التراث الإنساني عبر العصور ولولا هذا التعاون لما وصلت إلينا الفلسفة الإغريقية القديمة، ولما أمكن للمسلمين اليوم أو المسيحيين أو الهندوس أن يعتنقوا معتقدات أو يمارسوا طقوسا تعبدية مرت عليها عشرات القرون.

3-5: قابلية الثقافة للتقاسم والاشتراك: (رالف لنتن المصدر السابق ص62): الثقافة في نظر رواد الأنتروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية ليست عادات أو قيما أو أفكارا فردية لأفراد معزولين عن بعضهم البعض، بقدر ما هي عادات وقيما وأفكارا يتقاسمها عدد من الأفراد ينتمون لبيئة اجتماعية مشتركة، لذلك نجد هذا المعنى حاضرا في العديد من تعريفاتهم التي صاغوها لمفهوم الثقافة وكذلك في تحليلاتهم، ويعتبر الانتروبولوجيون هذا التقاسم نتيجة طبيعية للتفاعلات اليومية التلقائية الحاصلة بين أفراد المجتمع الواحد ولما تقوم به مؤسسات التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية من دور في اتجاه حفظ الثقافات وتمريرها من جيل لآخر، كذلك فإن آلية "التقليد" تلعب دورا مهما في تعميم العديد من العناصر الثقافية وجعلها أقرب للاشتراك والتقاسم ولكن بتفاوت بين عنصر وآخر، وذلك حسب ما يعطيه المجتمع والوعي العام المشترك من قيمة وأهمية لهذا العنصر الثقافي أو ذاك. وهذا التقاسم يكون أكثر وضوحا وكثافة كلما اتجهنا نحو العائلة والمجتمعات البدائية والوحدات الاجتماعية الضيقة والمغلقة، ويكون أقرب للاختفاء والضمور كلما اتجهنا نحو المجتمعات المفتوحة، ولكنه حقيقة ثابتة في نظر علماء الأنتروبولوجيا. إن تقاسم أفراد المجتمع الواحد لجملة من العناصر الثقافية واشتراكهم فيها هو الذي يعطي للثقافة طابعها الجماعي والاجتماعي، بل إن العديد من العناصر الثقافية نجدها مشتركة بين مجتمعين أو أكثر مما يعطي للثقافة في نظر البعض طابعا انتشاريا وإنسانيا وعالميا، وهو رأي مبرر عند أصحابه باعتبار أن المجتمعات البشرية بأسرها قد تفرعت عن أصول مشتركة من جهة، ومرت بحالات من الاحتكاك والتماس الثقافي جعلها تتبادل وتتقاسم العديد من العناصر الثقافية، ويلعب تطور وسائل الإعلام والاتصال في عصرنا الراهن دورا كبيرا في جعل حقيقة التقاسم والاشتراك الثقافيين أكثر اتساعا وشمولية.

4-5: الطابع الإكراهي أو الإلزامي للثقافة: يؤكد علماء الأنتروبولوجيا - وبعيدا عن كل نزوع ثقافوي- أن للثقافة سلطة على الأفراد ومختلف الفئات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع الحامل لتلك الثقافة، فالثقافة كما أشرنا في سياقات سابقة هي جملة القيم والقوانين والعادات والتقاليد والخبرات والأنماط السلوكية التي يتعلمها ويستبطنها الأفراد بفعل التنشئة الاجتماعية، فتصبح جزء من طباعهم وشخصياتهم التي ترافقهم باستمرار حيثما كانوا وعلى أساسها يتصرفون في كل شيء بما في ذلك الجزئيات الأكثر دقة وخصوصية، وحتى حين يقرر بعض الأفراد التمرد على بعض القيم أو العادات الموروثة، فإنهم يجدون صعوبة في التصريح بذلك لأنهم يتوقعون أن يلقوا لوما أو إقصاء أو عقوبة من قبل المجتمع الذي ينتمون له. وتتفاوت درجة إلزامية الثقافة أو العنصر الثقافي حسب اعتبارات متعددة نذكر منها:

أولا: طبيعة العنصر الثقافي وموقعه داخل البناء الثقافي، فالمبدأ الدستوري أو القانوني مثلا، له إلزامية تفوق إلزامية العادة أو التقليد، كذلك فإن الطقوس الدينية التعبدية تفوق في إلزاميتها العديد من الطقوس الأخرى مثل طقوس الزواج وغيرها.

ثانيا: إن إلزامية الثقافة تتفاوت من مجتمع لآخر، فقد أشرنا سابقا إلى أن مجتمع **"الأميش"**- وهو جزء من المجتمع الأمريكي الراهن- يتعامل بصرامة كبيرة مع ثقافته المحلية، فهو يبدي خضوعا كبيرا لعاداته وتقاليده وطريقة عيش الأجداد إلى درجة جعلته يرفض كل مظاهر الانفتاح والتغير والتحول التي نجدها عند بقية مكونات المجتمع الأمريكي.

ثالثا: إن درجة الانفتاح تتحدد حسب العصر، فالشعوب القديمة كانت أكثر تمسكا بثقافاتها وأحرص على المحافظة عليها، وهي حين تأخذ عنصرا ثقافيا من ثقافة أخرى تصهره ضمن بناها الثقافية الذاتية، أما الشعوب المعاصرة، فإنها تتثاقف فيما بينها بشكل مكثف ومعمق، بسبب تطور وسائل الإعلام والإتصال حتى أصبح البعض يتحدث اليوم عن "المجتمع المعولم" و"الفرد ذي الأبعاد المتعددة" و"المواطن الكوني" و"العالم القرية البلورية" وذلك للإشارة إلى سقوط الحدود بين الثقافات.

5-5: قابلية الثقافة للتجدد والتحول والتغير: الثقافة ليست شيئا ثابتا لا يتغير بل هي شيء متحرك ومتحول باستمرار، ويعود ذلك لعوامل مختلفة منها:

أولا: ليست الثقافة كما محددا تحديدا نهائيا من العناصر الثقافية يقع نقلها وتوريثها من جيل لآخر دون زيادة فيها أو إنقاص منها، بل هي جسم حيّ تموت فيه بعض العناصر- كبعض العادات والتقاليد التي تجاوزها الزمن وصارت لا وظيفية في المجتمع-، وتنشأ وتتولد فيه عناصر أخرى كبعض المعارف أو الخبرات التي ينتجها مجتمع ما استجابة لتحديات جديدة لم تكن موجودة من قبل، فالثقافة جسم حي متحرك والثقافات الثابتة المتجمدة هي فقط تلك الثقافات الميتة أي ليس لها شعب يمارسها وينظم حياته على أساسها. وقد خصص عالم الإناسة الأمريكي هيرزيكوفيتش القسم الثالث من كتابه " قواعد الانتروبولوجيا الثقافية، للحديث عن خاصية " الديناميكية" كخاصية ملازمة لكل الثقافات البشرية..(Melville Herskovits(1950), p142

ثانيا- لا توجد ثقافة بمنأى عن التفاعل مع الثقافات الأخرى وخاصة منها الثقافات المجاورة لها، فكل تفاعل بين الشعوب والمجتمعات والجماعات ينتج عنه بصورة آلية تفاعل بين الثقافات، فيحدث تبعا لذلك نوع من التثاقف، أي تبادل لجملة من العناصر الثقافية، وتزداد حدة وعمق هذا التثاقف بحسب مدة وعمق التفاعل الذي يحدث بين الشعوب والمجتمعات، فإذا تأملنا في الثقافة التونسية الراهنة وجدنا أنها قد نهلت وأخذت من منابع ثقافية متعددة بربرية وقرطاجنية وعربية وأندلسية وعثمانية وفرنسية وغيرها، وهي لا تزال تتفاعل مع الثقافات المعاصرة تأثيرا وتأثرا، شأنها في ذلك شأن أغلب الثقافات إذا لم نقل كلها.

5-6: قابلية الثقافة للتجزؤ والانقسام: لأن المجتمعات قابلة بطبيعتها للانقسام والتجزئة سواء على أساس طبقي أو عرقي أو جغرافي أو ديني أو على أساس النوع أو السن أو العمل أو المكانة الاجتماعية، فإنه من الطبيعي - تبعا لذلك - أن تنشأ داخل الثقافة الأمّ بعض التفرعات الثقافية Des sous cultures تكون مرتبطة بتلك الجماعات أو الطبقات أو الاثنيّات. فداخل الثقافة

التونسية يمكن الحديث عن ثقافة ذكورية في مقابل ثقافة نسائية وثقافة جنوبية مقابل أخرى ساحلية أو وسط غربية، كما يمكن الحديث عن ثقافة خاصة بالأقلية اليهودية وأخرى خاصة بالأقلية المسيحية وهكذا بالنسبة لبقية الشرائح الاجتماعية الأخرى.

6: وظائف الثقافة:

6-1-أ: الثقافة سمة بشرية: أشرنا فيما سبق إلى أن الثقافة سمة من السمات المميزة للحياة البشرية، فإذا كان أفراد النوع الواحد من الحيوان يتماثلون إلى الحد الأقصى في كيفيّات استجابتهم لاحتياجاتهم الفيزيولوجية الضرورية - الجنسيّة والغذائيّة والدفاعيّة مثلا،-فإن أعضاء الجماعة البشرية، يوجد بينهم اختلاف كبير في كيفية الاستجابة لهذه الاحتياجات، فإذا انتقلنا للحديث عن الاحتياجات التكميلية التي ابتدعها الإنسان باعتباره كائنا حرا وعاقلا ومبتكرا ولا يسعى لمجرد البقاء بل يعمل على تحسين هذا البقاء، يتجلى لنا ذلك الكم الهائل من المنتجات المادية والرمزية التي أنتجها الإنسان لتلبية تلك الاحتياجات، وتتجلى لنا "الثقافة" كخاصية بشرية، وعنصرا أساسيا من العناصر المحددة لهوية الإنسان مقارنة بالكائنات الحيوانية الأخرى.

6-2: الثقافة تعطي لكل مجتمع هويته الخاصة: تثبت البحوث الانتروبولوجية وجود اختلافات كثيرة بين الشعوب والمجتمعات في كل ما يمكن ادراجه تحت عنوان "الثقافة"، وهذه الاختلافات هي التي تعطي لكل مجتمع هويته وشخصيته الخاصة به مثلما ما ان الاختلافات القائمة بين الأفراد تعطي لكل فرد هويته الشخصية الخاصة به، ولأجل هذا تعاطى علماء النفس وعلماء الاجتماع و رواد علم النفس الاجتماعي والأنتروبولوجيون، مع الثقافة كأداة تحليلية ومدخل ضروري لفهم الشخصيات الفردية والجماعية، فابتكروا مصطلحات مثل "الشخصية الفردية" و"الشخصية المجتمعية" و"الشخصية الجماعية" و"الهوية الثقافية" و"الهوية الوطنية أو القومية"، مما يبين لنا الدور الذي تلعبه كل ثقافة في تحديد هوية المجتمع الذي يتبنى تلك الثقافة، فحين نتحدث عن المجتمعات الفرنكوفونية فإن أذهاننا تتجه مباشرة إلى الشعب الفرنسي وبقية الشعوب التي تعتمد اللغة الفرنسية كلغة رسمية في التواصل بين أفرادها، وكذلك حين نتحدث عن المجتمعات العربية فإن أذهاننا تتجه نحو هذه المجتمعات الناطقة بالعربية، وكذلك حين نشير إلى المجتمعات المسيحية، تتحدد في أذهاننا وأذهان من يسمعنا صورة واضحة عن المجتمعات المقصودة،وهي بالتأكيد المجتمعات التي تدين بالمسيحية، ويحصل نفس الشيء حين نشير إلى المجتمعات الإسلامية، وداخل كل مجتمع توجد تفرعات عرقية أو دينية أو قبلية، والمحدد الأساسي لهذه التنوعات هو الثقافة التي يعتنقها كل فرع من هذه التفرعات، فالعرب أو الأكراد أو التركمان داخل المجتمع العراقي تحدد هوياتهم والحدود الفاصلة بينهم على أساس ما يوجد بين هذه العرقيات من تمايز ثقافي، وكذلك حين نتحدث عن كاثوليك وبروتستانت في إطار الديانة المسيحية، أو شيعة وسنة في إطار الديانة الإسلامية، فإن ما يفرق بين طائفة وأخرى هنا أو هناك هو الفوارق بينها في التصورات العقدية والممارسات التعبدية وتمايزات أخرى على مستوى القيم والأنماط السلوكية المعتمدة داخل هذه الطائفة أو تلك. كذلك فإن المجتمعات تتمايز فيما بينها على أساس ما نبغت وتفوقت فيه في أي مجال من مجالات الإبداع، فالموسيقى هي العلامة المميزة في ثقافة الألمان، في حين يعتبر الرسم من مميزات الثقافة الايطالية، أما

الفرنسيين فكان تفوقهم في مجال الإبداع الأدبي، لذلك فحين تذكر أمامنا هذه المجالات الإبداعية تحضر في أذهاننا المجتمعات التي تميزت وتفوقت فيها.

3-6: الثقافة تضبط السلوك وتنظم العلاقات الاجتماعية: بعيدا عن الجدل القائم حول سؤال من الأسبق: الفرد أم المجتمع؟ نقول بأن الفرد ومنذ لحظة ولادته- في الظروف العادية طبعا- يجد في انتظاره عائلة تقوم برعايته وتعليمه وتنشئته حسب ما تتوفر عليه الثقافة المحيطة به من قيم ومعايير وقوانين وأنماط سلوكية وعادات وتقاليد، فيكون بمقدوره - بفضل كل هذه الوسائط - أن يتأقلم مع محيطه الطبيعي والاجتماعي، وأن ينخرط في جل الأنشطة والأدوار التي أُعده المجتمع للانخراط فيها، فالفرد يتمكن من خلال عملية "التثقيف" هذه، من اكتساب صفته كعضو كامل العضوية في المجتمع الذي ينتمي إليه.

تلعب الثقافة إذن دورا هاما في الضبط الاجتماعي من خلال ما تكرسه في نفوس الأفراد من حدود بين الأفعال المقبولة والأفعال المرفوضة وكذلك بواسطة ما تفرضه على الأفراد من ضوابط متفاوتة في صرامتها والزاميتها، فالقوانين الرسمية تحظى غالبا بعلوية وإلزامية كبيرتين باعتبارها تضمن قدرا من الضبط الاجتماعي لا يمكن أن تستقيم الحياة الاجتماعية بدونه. و تحمى هذه القوانين بمنظومة من العقوبات ومؤسسات رقابية وتنفيذية تلزم الناس بالخضوع لها، وفي مستوى ثان تتدخل منظومات أخرى من القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد والمعتقدات والطقوس، لترفّع مستوى الضبط الاجتماعي إلى حدوده القصوى الممكنة، إلا أن الخضوع لهذا النوع من الضوابط يقترن بنوع من المرونة، وتجدر الملاحظة بأن المجتمعات البشرية تتفاوت في هذا الجانب حسب نمط العيش الذي تختاره والحدود التي ترسمها لحرية الفرد، والقوائم التي تجعلها للأعمال المقبولة والأعمال المستهجنة. ففي مجال الطقوس التعبدية الإسلامية يوجد فارق كبير في درجة الإلزام بين الفرائض والواجبات الدينية من جهة، وبين السنن والمستحبات من جهة ثانية، فالأولى ملزمة وعدم القيام بها يعد معصية وإثما، أما الثانية فتدخل في باب العبادات الاختيارية، وهذا يعني أن القائم بها يثاب وتاركها لا يعاقب.

إن الإقرار بدور الثقافة في ضبط السلوك الفردي وتنظيم العلاقات الاجتماعية، لا يعني أن الثقافة تهدد حرية الإنسان أو تتعارض معها، بل إن وجود الضوابط القانونية والقيميّة والدينية، يساهم في ضمان التمتع بالحريات المختلفة ولكن في الحدود التي تحول دون الاعتداء على حريات الآخرين، وهذه الحقيقة يقر بها فلاسفة القانون من أمثال **منتسكيو**، وكذلك فلاسفة التعاقد من أمثال **جون جاك روسو**، وغيرهم من علماء التشريع، فهؤلاء يؤكدون بأن وجود الضوابط الأخلاقية والقانونية والعرفية لا يجرّد الأفراد من حرّياتهم بقدر ما ينظّم ممارستهم لهذه الحرّيات ويمنع التصادم بينهم، ومثال ذلك علامات المرور، فإن وجودها ضروري لتنظيم الحركة المرورية وبدونها تضطرب هذه الحركة وتصبح متعسرة إذا لم نقل مستحيلة. من جهة أخرى فإن غياب الضوابط الاجتماعية والمؤسسات التنظيمية يؤدي لانتشار الفوضى وسيادة قانون الغاب، أي "حرب الكل ضد الكل" على حد تعبير بيار نافيل"(Pierre Naville, 1977).

4-6: الثقافة أداة لضمان وحدة المجتمع:الثقافة كما أشرنا إلى ذلك سابقا هي جملة من القناعات والمعتقدات والتصورات والقوانين والقيم والعادات والتقاليد والخبرات المشتركة والمتوارثة من

جيل لآخر، والمجتمعات تحافظ على ثقافاتها وتؤسّس المؤسسات التي تسهر على نقلها وتعليمها للوافدين الجدد، لكي ينظموا على أساسها – ومثل سابقيهم - شؤون معاشهم ومماتهم على حد السواء. على هذا الأساس يمكن القول بأن الثقافة تخلق بين الأفراد المنتسبين لنفس المجتمع قدرا هاما وضروريا من الانسجام والتناغم والقدرة على التفاعل الإيجابي وتبادل مختلف الخدمات والمنافع التي لا يقدر الفرد لوحده على توفيرها، فالثقافة هي عبارة عن قواسم مشتركة تجعل لأفراد المجتمع الواحد رؤية متشابهة للعالم، وطريقة متقاربة في الفعل وردة الفعل، وحتى العواطف والانفعالات وكيفية تلبية الاحتياجات اليومية وأشكال الاستجابة للمثيرات الخارجية، فإنها تكون متقاربة إذا لم نقل متماثلة تماما.

6-5: الثقافة تمكن الأفراد من التكيف مع البيئة والاندماج داخل المجتمع: يأتي الفرد للحياة ويبقى مرتبطا بمحيطه العائلي لوقت أطول مما هو معهود لدى سائر الأنواع الحيوانية الأخرى، ويعود ذلك في الأصل لضعفه الفيزيولوجي وعجزه عن توفير احتياجاته الحيويّة المختلفة من طعام وشراب ولباس وسكن وحماية. وليتمكن الفرد من التواصل مع الآخرين من بني جنسه، والاندماج داخل محيطه الاجتماعي والطبيعي بصورة عامة، فإن الأسرة تعلّمه منذ طفولته الأولى كمّا هائلا من الحركات والكلمات وطرق التصرف المحددة دلالاتها مسبقا حسب الثقافة السائدة في المجتمع، كذلك يتعلم الفرد التمييز بين الأعمال المقبولة اجتماعيا والأعمال المرفوضة، ويستمر هذا التعلّم مع التقدّم في السنّ ليشمل العديد من الخبرات والمهارات والعادات والتقاليد والقيم والطقوس الدينية المعتمدة داخل مجتمع الانتماء، ويتم كل ذلك من خلال "عمليات مركبة ومتواصلة من"التنشئة" والتثقيف" تتواصل مع الفرد من الولادة وحتى الموت"(.هيرسكوفتش، 1950، ص29)

إن درجة اندماج الفرد داخل مجتمعه تتوافق غالبا مع حجم ما يتعلمه الفرد ويقبله ويوظفه في حياته اليومية من قيم وقواعد وأنماط سلوكية تكون مقبولة اجتماعيا، وبقدر الخروج عما هو مقبول ومشرعن يتعرض الفرد إلى أشكال مختلفة من الرفض والعزل الاجتماعي تتراوح ما بين مجرد اللوم والسجن المؤبد أو الإعدام. لذلك فإن كل المجتمعات البشرية بما في ذلك البدائية منها تحرص على حفظ ثقافاتها وتوريثها للأجيال اللاحقة باعتبارها أدوات ضرورية لضمان إندماج الفرد داخل مجتمعه، ويؤكد علماء الاجتماع الأنتروبولوجيا بأن الفرد يتعرض - حين ينتقل للعيش في إطار ثقافة أخرى يجهلها- لحالة من الاضطراب والإحساس بالغربة يسميها عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو "اضطرابات التطبع" hystérésis de l'habitus . وتنتج هذه الحالة لدى الفرد حين يدرك أن التطبّعات التي تطبّع عليها وما اكتسبه من استعدادات قد صارت عديمة الجدوى لأنها لم تواكب التغيرات الحاصلة في المجتمع الأصلي، أو بسبب انتقال مفاجئ للفرد من ثقافة لأخرى. ففي مثل هذه الوضعيات يجد الفرد صعوبة في التأقلم والاندماج داخل واقعه الجديد، وليس له سبيل لتجاوز هذه الحالة سوى أن يعدّل من تطبّعاته القديمة وأن يتغير بالقدر المطلوب ليتمكن من التأقلم مع واقعه الجديد.

" تصرف في روما مثل الرومان" هكذا كان يقول الرومان في أمثالهم الشعبية، ولتكون نبيلا يجب أن تتصرف كالنبلاء، وحين يكبر الطفل يقول له والداه:" صرت كبيرا ويجب عليك أن

تتصرف اليوم كالكبار" هذه مقولات نسمعها ونردّدها ونعلّم بعضها لأطفالنا، وهي كلها تؤكد مضمونا واحدا وهو أنه إذا أردت الاندماج داخل مجتمع أو جماعة ما، وجب عليك أن تتعلّم وتتّبع أسلوب العيش المتعارف عليه داخل ذلك المجتمع أو تلك الجماعة، وإلا صرت منبوذا ووصفت تبعا لذلك بالشاذ أو المارق أو المغرد خارج السرب.

6-6:الثقافة تحدد هويّة الفرد وانتماءه: تمثل الثقافة بالنسبة للفرد إحدى المرجعيّتين اللتين يستمد منهما الفرد هويّته وانتماءه، فهويّة الفرد تتحدّد أولا من خلال جملة من العناصر والمقومات الطبيعية الفيزيولوجية مثل الجنس ولون البشرة وطول القامة ولون العينين وبصمات الأصابع، وتستمد في جزئها المتبقي من الثقافة السائدة في المجتمع، فالاسم الذي نحمله، واللغة أو اللهجة التي نتكلم بها وكذلك الدين الذي نعتنقه والطقوس التعبدية التي نمارسها وحتى طريقتنا في اللباس أو في تناول الطعام، هي من العناصر الثقافية المحددة لهويتنا الفردية والجماعية على حد السواء، فالياباني يتمسك بطريقته التقليدية في تناول الطعام ليقول للناس أنه ياباني، ويلبس التونسي في بعض المناسبات والتظاهرات الثقافية الدولية الجبّة والشاشيّة التونسيتين ليقول للآخرين أنه تونسي.

فإذا انتقلنا للحديث عن الأفراد المنتمين لبعض الأقليات السوسيوثقافية داخل أي مجتمع، يمكننا القول بأن الهوية الخاصة لهؤلاء الأفراد تتحدد أساسا من خلال الخصوصيات الثقافية الخاصة بهذه الأقلية أو تلك، فداخل المجتمع التونسي يمكننا الحديث عن هوية خاصة باليهود، أو بالبربر، أو بالجماعات السلفية، وهكذا، وهذه الهوية تتحدد وتكشف عن نفسها بمجرد أن تنظر في اللباس الذي يلبسه الشخص أو إسمه أو المكان الذي يقصده لأداء طقوسه الدينية، .فالنقاب الذي تلبسه بعض النساء التونسيات دليل راجح على انتمائهن للجماعة السلفية، والاحتفال بمناسبة عيد الفطر أو الإضحى دليل راجح على أن المحتفل مسلما وليس يهوديا أو مسيحيا، وهذا يعني أن الفرد يستمد من ثقافته الفرعية (أو التحتية) بعض العناصر المحددة لهويته الفردية، فنقول أن هذا الفرد "تونسي مسلم" وذاك "تونسي يهودي" أو "بربري" أو "سلفي" إلى غير ذلك من التصنيفات الهويّاتية .

قائمة المراجع:

1.السيد، عبد العاطي السيد،(1977) المجتمع والثقافة والشخصية، دراسة في علم الاجتماع الثقافي، نشر دار المعرفة الجامعية، مصر.

2.الساعاتي، سامية حسن (1983)، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.

3.Arouet François-Marie (Voltaire), (1756),*Essai sur les mœurs et l'esprit des nations,*. Reproduit en version numérique par Jean-Marie-Tremblay en collaboration avec la bibliothèque Paul-Emile-Boulet de l'université du Québec de Chicoutimi, Québec, 2002..

4.Benedict, Ruth (1934),*Patterns of culture,* Boston, New York, Houghton Mifflin company.

5.Clark, Wissler (1917), *The American Indian, Man and Culture*(1923) http://www.universalis.fr/encyclopedie/clark-wissler/(retiré le 17-6-2016)

6.Durkheim, Emile,(1897),*le suicide, étude de sociologie* version numérique produite par Jean-Marie Tremblay en collaboration avec la bibliothèque Paul-Emile-Boulet de l'université de Québec Chicoutimi, Québec, 2002.

7.Erhard, Damien, et autres, Quelques réflexions sur les notions d'aires et d'espaces culturelles, dans les régions anglophone, francophone et germanophone. Journée d'étude organisée par l'institut des Amériques, université de Versailles, décembre 2013. https://trac.hypotheses.org/les-journees-detudes/2eme-journee-detudes.

8.Encyclopédie *universalis*(2002)

9.Frobenius, Leo,(1898), *Der westafrikaniche Kulturkreis,*.

10.Gaultier, Paul (1913), *les maladies sociales*, éditHachette, Paris.

11.Herskovits, Melville, (1950), *Les bases de l'anthropologie culturelles*, édit Payot, Paris, reproduit en version numérique par Jean-Marie-Tremblay en collaboration avec la bibliothèque Paul-Emile-Boulet de l'université du Québec de Chicoutimi, édit Maspero, Québec, 2002.p.52. (Retiré le 14-6-2016)

12.Linton, Ralf (1945) , *The cultural background of personality*, Traduit de l'Anglaisen français par Andrée Lyotard sous le titre de *« Le fondement culturel de la personnalité* »édit Bordas, Paris 1977, L'édition numérique est réalisée par Jean-Marie Tremblay, Collection « science de l'éducation » n^{o} 11.

13.Linton, Ralf et autres,(1936), *Memorandum for The Study of Acculturation*.
inonlinelibrary.wiley.com/doi/10.1525/aa.1936.38.1.02a0033/epdf.

14.Naville, Pierre, (1977), *La guerre de tous contre tous*, édit Anthropos, Paris.

15.Tylor, Edward (1920) Primitive Culture Researches into the Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language, Art and Custom, 6^{e} edition, John Murray, London.

16.http://www.larousse.fr/encyclopedie/divers/civilisation/34231

17.Le caractère national, mythe ou réalité, Sources, problématique, enjeux, in : Cahiers de la maison de la recherche en sciences humaines n^0 48, Caen, mai 2007.